الفصل السابع عشر

قال الشيخ : هل تذكر عندما قصصت عليك ذات مرة قصة رؤ يا رأيت ◦ فيها قريباً لي اسمه مطاع ، وكيف انتبهت من نومي وشرعت في تعبير رؤ ياي وصلت إلى أن المطاع هو روح الكون . . ثم كيف اتفق لي بعد ذلك أن اطلعت على كتاب مشكاة الأنوار للغزالي فرأيت في مقدمته ، والمقدمة للدكتور أبو العلا عفيفي ، وصفاً لنظرية المطاع عند الغزالي .

كانت هذه من الاتفاقات العجيبة التي تثبت أن المعين الذي يشرب منه الصوفية واحد . أمر آخر أذكره حين شرعت في مطالعة مشكاة الأنوار ، فالمحقق تحدث أيضاً عن فصل الحجب الذي أورده الغزالي في كتابه ، ولما كنت عند ذاك مهتماً بوضع كتاب عن معراجي الروحي معتمداً في ذلك الرؤ ى وتعبيرها فلقد أجلّت قراءة كتاب الغزالي مخافة أن أتأثر به من حيث أدري أو لا أدري .

لقد صادف ذات مرة أن كنت أحدث صديقاً لي عن رؤ اي ، وكيف تتفق هذه الرؤ ى مع قراءاتي الصوفية ، فإذا بالصديق يقول لي ببراءة : لعلك تتأثر بقراءاتك هذه ولا تدري . فقلت منافحاً عن نفسي : يصدق قولك لو أنني قرأت عن نظرية المطاع للغزالي ثم رأيت رؤ يا تشبه ما قرأت ، ولك أن تسمي هذا انطباعاً لما قرأت ، ولكن ما حدث هو العكس . لقد رأيت الرؤ يا أولاً ثم قرأت عنها ثانياً فكيف تفسر هذا ؟ •

ومع هذا فلقد أجلت قراءة المشكاة كما قلت لك لأن الموضوع الذي كان يعالجه الامام كان موضوعي الشاغل بالذات . . حتى كانت ليلة رأيت فيها رؤ يا انتبهت منها وما أن أخذت في تعبيرها حتى قلت : سبحان الله الرؤ يا تريني الحجب . وتذكرت أن الدكتور عفيفي ذكر شيئاً عن نظرية الحجب للغزالي دون أن أقف طويلاً عند هذه النظرية ودون أن أقرأ كتاب الغزالي نفسه خوف التأثر به كما قلت .

وكانت النتيجة أنني دخلت المكتبة وجلست أفكر ، ثم جئت بكتاب المشكاة وفتحته وشرعت أقرأ ما كتب الإمام عن الحجب. لقد أورد الحديث القائل أن لله سبعين ألف حجاباً من نور وظلمة . . وليس يهمني أن أذكر ما كتبه الإمام عن هذه الحجب ، فأنا قد طالعت ما كتبه عن الموضوع من باب الاطلاع والفضول . . أما أن أستمد مما كتبه شيئاً فهذا أمر ما خطر لي ببال . فالعارف مصباحه قلبه وقد ضاء بالزيت المقدس فلا حاجة لي في ما كتبه الأولون إلا من قبيل الاستئناس لا غير . ولقد سبق أن قلت لك إن العارف يقرأ ليستفيد علم المصطلحات ويقرأ ليعرف كيف عولجت الموضوعات المعنية وكيف عبّر الصوفية ما رآه هو رؤ ى . . أما أن يكون الصوفية مدداً للعارف فهذا أمر غير وارد ، ولئن ورد فهو حكماً ساقط لأن العارف نجم ، وضوء النجم منه وفيه ، وفي ميدان التصوف خاصة لا سبيل إلى الكتابة عنه إلا بمدد من الذات الإلّهية وإلا لما كان العارف نجماً .

لقد عبر الغزالي رؤ ياه وكتب ما كتب . وعندما أجاب أبو بكر الرسول عن تعبير رُؤ يا رآها أجابه الرسول : أصبت بعضاً وأخطأت بعضاً . فالتعبير كما قلنا إلهام . والعروج سُلّم كما قلنا فإن المعّبر يعبرُ الرؤ يا بتحميلها على السلّم . فلئن عبرها نزولاً اختلف تعبيره عن تعبيره لها عروجاً . ولسلطان العارفين تعبيران وأكثر في الرؤ يا الواحدة . والمهم في الموضوع أن الغزالي أورد نظرية الحجب في الفصل الثالث من كتابه المشكاة . وانتقد المستشرق مونتغمري وات هذا الفصل بالذات وقال إنه منحول وإن منتحله دسه وهو من وضع ابن سينا على الأكثر ، ورد الدكتور عفيفي على هذا الادعاء رداً مقنعاً مفحماً .

وليس يهمني ما ورد من سين وجيم حول نظرية الحجب للغزالي وكيف وردت في المشكاة ، إنما يهمني هو أنني عندما كنت أكتب كتابي الخاص عن المعراج رأيت رؤ يا الحجب في المقام الذي حدده الغزالي بالضبط وكان هذا مثار دهشتي الشديدة .

كنت منطلقاً في تسجيل رؤ اي وتعبيرها دون التفكير في الكتابة عن شيء من الحجب . كانت قناعتي بأن كتابي كله كتاباً عن الحجب فما حاجتي إلى تخصيص فصل خاص بالحجب بالذات . . والصوفي حين يكتب لا يكتب بعقل . . أعني أنه لا يكون هو المؤلف لكتابه ولا منظم ومرتب أبوابه وموضوعاته . . وفي مجال تعبير الرؤ ى بالذات يكون الله هو المؤلف والمبوب ومرتب الموضوعات حسبما يتم ذلك عن طريق الرؤ ى نفسها .

لقد وضعت مخطوطاتي في التصوف معتمداً الرؤ ى دائماً ، وهذا يعني ـ وقد لا تصدق هذا ـ أنني كنت موقناً بأن الله يشاهدني وأنا أكتب وأنه كان يرضى أو لا يرضى عما أكتب ، وأنه كان يصحح عن طريق الرمز والإشارة حسبما ترد في الرؤ ى. باختصار أكون وأنا أضع كتاباً في التصوف طالباً من مُعِّدي رسالة جامعية يكتب تحت إشراف أستاذه الذي يوجهه ويطالع موضوعه ويصحح ما كتب ويرده إلى مراجع ويرشده خطوة خطوة ، والطالب يبذل ما في وسعه حتى ينهي الرسالة ويقدمها إلى أستاذه لينال شهادته .

وإليك الآن الرؤ يا التي رأيتها عن الحجب . رأيت امرأة محجبة تأكل طعاماً شهياً ، ولقد دعتني لمشاركتها طعامها فلما مددت يدي إلى ما تأكل رأيت الطعام جسداً بشرياً فتياً فاشمأززت وانقبضت يدي وقلت أعوذ بالله ما هذا ؟ . . ثم وجدتني في سوق الحميدية ، وفي السوق مسيرة اشترك فيها لفيف من رجال الدين ، وكان فيهم قسيسون ورهبان وحاخامات وشيوخ متعممون . . وفجأة برز رجل دين أعرفه وكان متعصباً ما لبث أن التفت إلى الجمع وجعل يهاجم هذا وذاك فعلا اللغط وساد الهرج والمرج وانقلبت المسيرة مظاهرة صاخبة . . ثم وجدتني في جامع الأموي ، والمسجد خال ، وفجأة

وجدت أمامي رجل الدين المتعصب قد وقف متباهياً بنفسه قائلاً أنا وأنا فهززت رأسي أسفاً وقلت له : لا ، لا خير فيك ما دامت أناك موجودة ولن تكون في هذا الجامع ما دمت لست بجامع .

وتعبير الرؤ يا أن المرأة المحجبة إشارة إلى النفس المحجوبة بشهواتها ودل على هذا أن المرأة تأكل طعاماً شهياً ، وثبت أن هذا الطعام جسد حي ، والجسد شهوات . . فالمحجوبون من هذا الصنف محجوبون بشهوات النفس الحيوانية ، وهذا يطابق تصنيف الغزالي لهؤلاء المحجوبين بالشهوات كما رود في المشكاة . ثانياً مسيرة رجل الدين من كل أمة تدل على العودة إلى الحضرة الأسمائية المسماة صورة آدم فالمسيرة ضمت صوراً إذ كانت في السوق وليس في السوق إلا الصور كما قال البسطامي . والمسيرة اسم مفرد ضمت كثرة ، فهي واحد في كثرة أوكثرة في واحد كقولنا الجنس والنوع والصور أصلاً لله وهي الله من حيث الظهور ، فما من صورة إلا وهي مجلى لله على الحقيقة ، ولهذا كان آدم مخلوقاً على صورة الرحمن ، وآدم أبو البشر ، والأب واحد والأبناء كثر . والمجالي مرايا كما قلنا تعكس صورة الواحد . . وحتى على مستوى الطبيعة فهي مجلى ، وما خرج موجود على وجوده سبحانه لأنه قائم به .

هذه الصورة الجامعة هي المدعوة بمثال الرحمن . فعلى مستوى القلب كنا قد عرفنا هذا الخلق بأنه مرآة أيضاً وهو على الحقيقة مستودع للخواطر التي هي في قبضة جبارها . ونحن عندما نوحد الخواطر نصل إلى الواحد الذي اتخذ قلب ابن آدم وسيلة لظهوره ، وظهوره ظهور أسمائه وفعله . . فما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء . فإذا كان هذا هو حال القلب الإنساني فأي قلب هو في حضرة غير الحضرة الإلهية ؟ . . وأي قلب له من الخيرة غير ما اختاره له الله ؟

لقد وحد الموحدون ليعرفوا الواحد الأحد . وحقيقة العلم بالله معرفته فمتى عرفناه حققنا غاية الله من خلقنا . وكل الطرق التي سرناها حتى وصلنا إلى الواحدية ثم الأحدية إنما كانت تقصد جلاء السر الإلهي الذي هو واحد وكثرة .

والمتعصب القائل إن الله معه من دون غيره كالمؤمن بأن الله يُحد في صورة . وإذا كان الله يحد في صورة صار في الأرض والسماء آلهة لأن الأرض والسماء مشحونة بالصور . والمتكلم حين يتكلم يتكلم تعبيراً عن خاطره . فالكلام يكون نجوى أولاً ثم ينقل إلى الأوتار ويخرج صوتاً . فالإنسان على الحقيقة معبر وبوق . . هو الصُور الذي ينفخ الله في أوله فيتكلم الانسان في آخره .

والمؤمنون الذين فنوا في التوحيد رأوا الله ظاهراً بكل شيء وفي كل شيء وتحققوا بكونه سميعاً بصيراً . والموحدون يمشون في الأرض الهوينا مشاهدين كشفاً جلال فعل الله الذي تجلى . وتراهم يسمعون الكلام فيفهمون عن الله ما لا يفهم أحد . وما من أحد إلا وهو حرف من حروفه علم ذلك أم جهل . ولهذا خافت الصوفية آثار الله في خلقه وكيف اختفى في الصور . لقد قدسوا الصور وألّهوا الصور ثم حرموا الصور دلالة على من في بطنان نور الصور .

فالمسيرة جماعة والجماعة مختلفة متحدة . فالله تجلى في كل صورة بمجلى ، وما من مجلى إلا وفيه دلالة عليه حتى وإن وقع البصر على ما تنفر منه العين أحياناً . فبين الجمال والجلال سر لا تعيه إلا البصيرة الواعية .

لهذا سبحت الصوفية الله الظاهر الباطن ونادت : (إن كل لما جميع لدينا محضرون) ، (وهو القاهر فوق عباده) ، (وما من دابة إلا وهو آخذ بناصيتها) .

فالصور كثرة ولكنها وحدة ، ولقد تكلمنا عن الصور الفائضة عن الهوية الأحدية وكيف تباينت لما انطبعت في صفحة الوجود ، وما خروجها إلى حيز التحقق إلا ليتحقق العارف من الآثار الملكوتية الظاهرة في الملك الظاهر .

وعلى هذا الأساس كيف يمكن أن يدعي مدع أن الله معه وليس مع أخيه أو عدوه ؟ ومتى كان عدوه عدوه والمجلى جعل مجالي إخراجاً للقوى ؟ إن إدعاء الأحقية بالمعية الإلّهية معناه أن الله مع صورة دون صورة وهذا محال ، فالتوحيد واجب ، ومن الكفر أن نستر الله بحجاب صورة من الصور دون بقية الصور .

وكل الآثار المدمرة الناجمة عن التعصب والتفرقة وبغض الغير والشنآن ما نجمت إلا عن الإصرار على حصر الله في صورة .

وننتقل الآن إلى القسم الثالث من الرؤيا وقد وجدتني في الجامع وليس معي إلا الشخص الذي كان قد خرج على المسيرة في السوق وأفسد نظامها فقلت له أن لا خير فيه ما دامت أناه موجودة ، والأنا هنا هي الأنا الجامعة لأن الرجل كان في الجامع ، والأنا الجامعة الحضرة الأسمائية التي كانت أول ما خلق الله بعد العقل .

لقد جعلنا الواحد أساس العدد ، وقلنا إن الكثرة أساسها وحدة ثم صارت كثرة ، ثم نسفنا الكثرة وعدنا إلى الواحد ، وقلنا إن الأمر داخل خارج ظاهر باطن ، وقلنا ليس في الوجود إلا الموجود وإن الموجود هو هذا الواحد . وقد اختلفت تسميات الواحد فمن قائل إنه الروح الكلي أو العقل الكلي أو الروح المحمدي وقد سماه الغزالي المطاع كما ورد نعته في القرآن .

وكنا تحدثنا عن الكون الكروي ، وقلنا في الدائرة ما قلنا ، وقلنا إن مركز الدائرة أساسها ، والمركز نقطة ، والنقطة غير الواحد ، وجاء في تعريف هذه الدائرة أنها خط مستدير كامل جامع لعدد متناه من النقط ، ولكنها ، من حيث أنها عدد متصل من النقط ، مغلقة ومنطوية في الأساس أي في النقطة الأصلية . فالواحد لا يملأ الدائرة لأن الدائرة مشحونة بالنقاط ، والحقيقة أن بدء الواحد كان لما حدث الانفجار السديمي الذري الذي كشف عنه أحد علماء العصر الحديث ، وقال إن هذا الانفجار السديمي هو بدء تشكل الأجرام والشموس أي بدء تشكيل العالم العنصري . والبدء هذا هو الخلق ، وهو تكثف النور اللطيف الذي تحدثنا عنه . فالذر نقاط ، لكن تكثفه شكل الواحد الذي هو الخلق والأمر كما ورد نعته في كتاب الله .

لقد سبق وتحدثنا عن هيغل ، وهيغل هو أكبر فلاسفة الواحد على الإطلاق ، وقلنا إن واحدية هيغل موسوعة ، لكننا قلنا إن هيغل أخذ على كانط عندما صرح كانط بأن الشيء في ذاته غير قابل للعلم . . أما هو هيغل فلقد قال

إن الشيء في ذاته هو ما يصبح لذاته ، وإن ليس فيه إلا ما خرج عنه ، وإن الهوية انتهت بالماهية ، وإن العقل صار عقلاً بتطور الوعي . أي أن هيغل بدأ حيث بدأ تشكل الواحد وأنكر أن يكون لهذا الواحد خالق بارىء عليم سميع بصير ليس له إلينا حاجة إلا ليعرف ، وما خلق الواحد الذي صار كثرة إلا ليظهر ، وظهوره غير هويته رغم كونه صورته ، وصورته مرآة له ، ولكن صور المرآة وهم في حد ذاتها . فما خرج من باطن الهوية هي قوى الهوية ، وهذه القوى مخلوقة ، ومن هنا كان الخلاف حول تهمة وحدة الوجود التي رمي بها الصوفية .

هناك فرق يا بني بين أن يكون الله في غنى عن العالمين ، عالم الملك وعالم الشهادة وأن يكون هو العالمين . والله حين خلق الكون خلقه وفق قوانين ، وما يزال الإنسان على تحضره وتوغله في ميدان العلوم جاهلاً أكثر أسرار هذه القوانين . إننا ما نزال نحبو على طريق الأسرار الإلّهية ، وواقع كهذا كيف يمكن أن يقرن بقولنا إن الله عقل متطور وإن وعيه تكوّن عبر التاريخ ، أي أن نجعل الله إنساناً يحبو ثم يقف على قدميه ثم يمشي ثم يعدو على طريق الوعي ؟

لقد اعترف ابن تيمية بأن ابن عربي أقرب الملاحدة (أي الصوفية على حد زعمه) الموحدين إلى أهل السنة ، وحدد هذا القرب بأن أورد أن ابن عربي قال أن الظاهر ـ أي الله ـ هو غير المظاهر . . وهذا هو بالتحديد الفرق بين ابن عربي مع بقية الصوفية الموحدين وبين فلاسفة وحدة الوجود . فهؤلاء الفلاسفة يقولون بالظاهر والباطن والأول والآخر والواحد والكثرة والكثرة الواحد ، ولكنهم يجعلون الله هو الكون ، أما الصوفية فقالوا إن هناك هوية إلّهية أحدية مطلقة بلا حصر ، وهناك ماهية واحدية هي روح الكون مخلوقة وهي التي كان منها الكون .

الكون في نظامه الذري هو الماهية أي ما هو موجود ، أما الهوية فهي الوجود الصرف الذي يتعالى عن أن يحد بحد أو يوصف بنعت ، وهو المراد بقوله

تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ . . فإذا عدنا إلى الرؤ يا قلنا إن الواحد الظاهر في الجامع كفَرَ لما قال أنا وأنا لأنه بقوله هذا سَتَرَ الله ، والله ما خلق الواحد إلا ليعرف أي ليظهر لا ليستر .